" قراءة فلكلورية في الموالد القبطية "

تختلف أشكال التعبير الفني عن التدين، وتنوع من شعب لآخر، ومن مكان لآخر، وأحد هذه الأشكال الاحتفالات الشعبية التي تسمى " الموالد " وهي مناسبات لتحقيق نوع من المزج الفريد بين العادات والمعتقدات الشعبية وبين الشعائر والممارسات الدينية[i].

وتختلف احتفالية المولد في مصر اختلافات جوهرية في الشكل والمضمون عن المولد في المجتمعات المحيطة بها، ولعل السبب الرئيسي وراء هذا الاختلاف يرجع إلى معرفة المجتمع المصري لهذا النوع من الاحتفالات منذ عهود بعيدة، فهي احتفالات مصرية صميمة، قبل أن تنتمي أو تنتسب إلى أي من الأديان[ii].

والمولد ظاهرة فلكلورية تعمل على – وتعمد إلى – المحافظة على التراث الشعبي، وعلى ذلك فهي ظاهرة اجتماعية ثقافية حوت داخلها – بالإضافة إلى الأصول الدينية – جوانب اقتصادية وترويحية وثقافية وغيرها[iii].

والدارسون للموالد المصرية لديهم فرصة أفضل من غيرهم لدراسة ومتابعة التطور الشعبي والاجتماعي لهذه الظاهرة، إذ تتيح لهم الديانة المصرية القديمة فرصة لتتبع حلقات ومراحل التطور الديني والتعبير الشعبي عن هذا التدين في المجتمع المصري ، رغم اختلاف وتنوع العصور والديانات واللغات التي توالت على مصر[iv].

فقد كان المصريون القدماء يقدسون آلهة عليا وهي عامة لجميع الشعب مثل: الشمس وأوزوريس ... ، بينما يقدسون آلهة أخرى محلية وإقليمية، فكل منطقة لها معبودها الخاص وإلهها المحلي الذي يتقربون إليه، ويقدمون له القرابين ويسألونه الحماية والمعونة، ويعتقدون أن له دوراً رئيسياً في سعادتهم أو شقائهم ولذا كانوا يحتفلون به – أو به– طلباً لرحمته أو اتقاءً لغضبه[v].

وكقاعدة عامة كان يوجد في كل مدينة عيد أو أكثر احتفالاً بمعبوداتها الخاصة. وكان أهم ما يميز هذه الاحتفالات الطابع الديني الغالب عليها، وعلاقتها الواضحة بالشعائر الدينية التي تصل بالديانة المصرية القديمة إلى فهم أعمق وأفضل[vi].

ومن أشهر الأمثلة لهذه الاحتفالية المحلية احتفال مدينة طيبة بالعيد السنوي للإله آمون(صورة رقم ١)حيث تخرج السفن المقدسة من المعبد، وهي تحمل تماثيل الإله المقدسة ورموزه الخفية، فتجرى في المياه، يحيط بها الكهنة وحملة المشاعل والبخور، وهم ينشدون أغانيهم الدينية ويرتلون الأدعية[vii].

وانطلاقاً من مفهوم الإلهة المحلية في مصر القديمة يمكن أن نصل إلى فهم الأبعاد الحقيقية التاريخية والثقافية للموالد القبطية، باعتبارها تعبيراً عن المكانة الدينية المتأصلة في الفكر

المصري، وأهمية وقداسة الحياة الآخرة، التي يستحق من يصل إليها أن نمجده ونكرمه ونحتفل به[viii].

وعلى هذا تعد الموالد القبطية تطوراً وامتداداً طبيعياً للاحتفالات المصرية القديمة . وقد يرجع انتشار الموالد القبطية في مصر، وتبوؤها هذه المكانة في الحياة الاجتماعية والروحي إلى أسباب، من أهمها ما تحمله الشخصية المصرية بشكل عام والقبطية بوجه خاص من طبيعة وصفات قدماء المصريين الذين نشأوا على الاعتقاد في القوى العلوية وتقديسها، احتراماً لها أو خوفاً منها، بالإضافة على موقع مصر الفريدجغرافياً وتاريخياً وروحياً، الأمر الذي أدى إلى تواجد – وحياة – العديد من القديسين بالفعل داخل حدود مصر الجغرافية، فهم داخل الوجدان الإيماني والروحي للأقباط يتمثلون بهم ويلجأون لهم ويحتمون فيهم، وساعد على ذلك ما يوفره الإطار العقيدي لكنيسة القبطية ككنيسة تقليدية، وما يفرضه الإطار الاجتماعي للأقباط في مصر. والتعرف الإجرائي للمولد هو الاحتفال بيوم ميلاد صاحب المولد[ix].

وقد يرى البعض أن كلمة " مولد " دخيلة على المجتمع القبطي، وأنها مستحدثة، ومن آثار العصور الوسطى والتأثر بثقافة ولغة الوافدين، والحقيقة أن إطلاق تعبير " مولد " على الاحتفال بتذكار قديس أو شهيد، إنما هو تعبير معروف في الكنيسة منذ القرن الثاني الميلادي سواء في الشرق أو في الغرب[x].

فاحتفالات الكنيسة القبطية بشهدائها وقديسيها يكون في يوم نياحتهم وانتقالهم إلى السماء، حيث تؤمن الكنيسة أن يوم موت هؤلاء هو يوم ميلادهم الحقيقي في السماء. وعلى ذلك يتوافق تعريف المولد القبطي بالتعريف الإجرائي للمولد، فهو احتفال بيوم ميلاد القديس صاحب المولد، ولكن يوم ميلاده الثاني في السماء وهو الأهم من الميلاد الأول على الأرض، ولذلك فكثير من القديسين لا تعلم الكنيسة – أو لا تهتم – بمعرفة تاريخ ميلادهم بدقة، ولكن تهتم وتبجل وتحتفل بتاريخ وفاتهم، باعتباره اليوم الأهم في حياة القديس، والذي يصل له بقدر كبير من القداسة والتقوى ما يستحق معه أن يقام له الاحتفال لتكريمه والاحتفاء به[xi].

ويحتفل الأقباط بذكرى العديد من الشهداء والقديسين، ولعل أكثرهم شهرة القديسة مريم العذراء والقديس جرجس، ولهذا فالعديد من الموالد تقام بالأكثر على اسم " العذراء " أو " مارجرجس" ويحتفل الأقباط بهذه الموالد مظهرين سعادة وبهجة يعيشون على ذكراها من عام لآخر[xii].

وعادة ما تكون الساحة الخارجية للكنيسة أو الدير مسرحاً لمعظم مظاهر المولد الاحتفالية فيقيمون فيها الخيام، ويستأجرون الحجرات ويعدون الولائم والذبائح، ويقدمون العطايا والنذور التي تأخذ أشكالاً عديدة في إطار من الأغاني والأناشيد الدينية في مدح صاحب المولد وتكريمه والإشادة بحياته ومعجزاته[xiii].

وتعود البداية الأولى للموالد القبطية إلى السنوات الأولى للمسيحية في مصر، وتعرضها لاضطهادات متنوعة في محاولة لإيقاف نموها وانتشارها، وما نتج عن ذلك من ظهور الشهداء والقديسين، فكان كلما اشتهر أحد هؤلاء في بلدة أو مدينة يتوافد إلى هذا المكان الجموع الكثيرة للاحتفال بهذا القديس، وإحياء سيرته وتذكاره، وبتوالي السنوات وتكرار الاحتفال يشتهر المكان ويثبت الموعد، ليتحول إلى تجمع سنوي " مولد " يرتاده الآلاف من المحبين والمريدين[xiv].

وقد بدأت هذه الاحتفالات في الأصل لتكريم القديس برفع الصلوات، وإقامة القداسات وقراءة سيرته بالتفصيل للتشبه بحياته واتخاذه قدوة ومثال . ثم تعددت مظاهر هذا الاحتفال مثل إيقاد الشموع أمام أيقونة القديس(صورة رقم٢) وتقديم النذور من الأطعمة والذبائح لإطعام الفقراء والمحتاجين الذين يتجمعون حول مزار القديس، طلباً لبركته وعطاياه، إذ هو عندهم– كما عند كل مريديه– يستمع لطلباتهم ويلبي احتياجاتهم،فهو لم يمت بل حي بروحه،وهو ليس بغائب بل حاضر في مولده والاحتفال المقام له.ولكثرة الأعداد من رواد المولد وما يحتاجونه من أماكن للمبيت، ومن مأكولات وذبائح ونذور وخلافه،انحرفت هذه الاحتفالات عن طبيعتها الدينية البسيطة[xv].

وإن كان من الصعب الفصل بين جوانب ومظاهر المولد القبطي لتداخلها وتكاملها وترابطها، إلا إننا نتعرض فيما يلي لبعض الجوانب الروحية – في فصل تعسفي إن جاز التعبير – لمظاهر المولد القبطي، وذلك في إطار ثقافي يعكس إلى أي حد كيف تؤثر عناصر المولد في ثقافة الجماعة وفهمها الشعبي لمعتقداتها الدينية، ومدى التأثير المتبادل بين المعتقدات الرسمية والشعبية، وبمعنى آخر كيف يمارس القبطي معتقداته وشعائره الرسمية في إطار شعبي وكيف يوظف سلوكياته الشعبية لخدمة معتقداته الدينية[xvi].

١ – المولد والطقوس الدينية:

وتمثل في الأشكال الرسمية التي تستعين بها الموالد وتستعيرها من المنظومة الرسمية للديانة المسيحية وكمثال لها نتعرض للقداسات التعبيرية وطقس المعمودية[xvii].

يعد القداس في الكنيسة القبطية أحد – إن لم يكن أهم – وأوضح مظاهر العبادة المسيحية الرسمية، وفيه يجتمع الشعب في الكنيسة رافعاً الصلوات والابتهالات لله تعبيراً عن حياة الشركة بين المؤمنين والله[xviii].

وتمثل هذه القداسات أهمية عند البعض، فيحرصون على حضورها، وخاصة من يهتمون بإتمام العبادات الطقسية والذين تتعاظم عندهم الوظيفة الدينية للمولد، أو تأتي في مرتبة متقدمة عن غيرها من عناصر المولد الأخرى، وعند البعض الآخر وخاصة المقيمين داخل منطقة

الاحتفال أو بالقرب منه تقل أهمية حضور القداس عندهم " نسيب الكنيسة للغرب عشان يأخذوا بركة " [xix].

ويرى لبعض مبرراً آخر لعدم الاهتمام بحضور هذه الممارسة التعبيرية الرسمية، إذ يمكن حضورها في أي مكان ووقت آخر خارج المولد " القداس نلقي عليه بعدين " إنما المولد مش هيتكرر " ولذا كثيراً ما تخلو الكنيسة من المصلين، بينما يكثرون خارجها منتشرين ومفضلين لمظاهر ووظائف المولد الأخرى[xx].

أما طقس العماد فله معنى هام في الفكر الكنسي، كما يعد من المناسبات السعيدة والهامة في حياة الأسرة.

ويحرص الكثير من رواد المولد على إتمام عماد أطفالهم أثناء احتفالات المولد حتى إن حرصهم هذا يدفعهم إلى مخالفة التعليمات الكنسية بشأن عماد الأطفال بتأجيل وقت العماد إلى موعد المولد وفاءًلنذر سبق الوعد به[xxi].

ولعل الربط بين إتمام هذا الطقس الكنسي داخل الجو الاحتفالي بالمولد يرجع لعدة أسباب أهمها طلباً لبركات القديس ومباركة الطفل، وأيضاً للاستفادة من هذا الجو الاحتفالي الذي يجمع الاهل والاصدقاء، اذ يستلزم اقامة احتفال خاص بالعماد نفقات مالية والتزامات اجتماعية تتحرر منها اسرة المعمد إلى احتفالات المولد[xxii].

وبعد انتهاء طقوس ومراسم العماد الكنسية، تحمل الام طفلها المعمد ومعها الأهل والأصدقاء في موكب، لزفة الطفل الصغير داخل الكنيسة بالألحان الكنسية، حتى إذا كان الخروج من باب الكنيسة تتلقفه عربة مزينة يجره جواد تاوف بالمعمد أنحاء المولد بين دقات الطبول والمزمار (صورة رقم٣) وكلما زادت مساحة المكان الذي يقام فيه المولد حول الكنيسة كلما طالت الزفة وطال وقتها، حيث يكون لزاماً على هذا الموكب المرور على خيام وأماكن إقامة الأهل والأصدقاء، لتحقيق أكبر قدر من الإعلان عن فرحتهم، وقد يفضل البعض اقتصار الاحتفالية على الجانب الديني فقط والاكتفاء بزفة المعمد داخل الكنيسة[xxiii].

٢- المولد والأنشطة الروحية:

الأنشطة الدينية التي تتم على هامش الاحتفال خلال فترة إقامة المولد ليست عنصراً قديماً ولكنها نشاط حديث نسبياً، استحدثته الكنيسة في بعض الأحيان لعمل توازن مع النواحي الأخرى غير الدينية، وفي معظم الأحوال كنوع من الإحلال لبعض المظاهر والممارسات التي منعتها الكنيسة، أو ضيقت فرص إقامتها مثل: السيرك وعروض الحواة، وأيضاً لإضفاء الجو الروحي على الاحتفالية وطلباً لزيادة مساحة النشاط الديني خلال فترة المولد.

وتعد العظات والعروض الفنية الدينية من أبرز عناصر هذه الأنشطة، يطلق عليها كنسياً مصطلح " نهضة "، ويتم عمل برنامج لهذا النشاط خلال فترة الاحتفال، يتكرر يومياً على

مدى أيام المولد، ويتكون من فقرة رئيسية هي العظة " الكلمة الروحية " والتي عادة ما يلقيها أحد الشخصيات المعروفة لتكون وسيلة جذب لرواد المولد . بالإضافة إلى فقرات أخرى يومية تتنوع بين أشكال العروض الفنية المختلفة، مثل فرق الكورال التي تتبارى في عرض أشكال وطرق إنشاد الترانيم والألحان الكنسية مستعينة ببعض الآلات الموسيقية البسيطة، وغالباً ما ترتدي هذه الفرق زياً موحداً يظهر شعار الفريق أو اسم الكنيسة التي ينتمي إليها[xxiv].

وقد تأخذ هذه العروض الفنية الشكل التمثيلي مثل المسرحيات القصيرة، أو الأوبريتات الملحنة، أو الاستكشات الهادفة وكلها تدور حول قصص ومعان دينية تحث على فضيلة روحية أو تعكس لسيرة قديس[xxv].

وعادة ما تكون هذه الأنشطة ضعيفة من الناحية الفنية، حيث تعمد على الهواة وغير المتخصصين، ولكنها في النهاية تمثل عنصر جذب للكثير من رواد المولد، لقضاء وقت ممتع ومسلي في مشاهدة هذه العروض التي تختلف وتتنوع من يوم لآخر خلال الموضوع.

كما تقام ضمن النشاط الديني للمولد وعلى هامش النهضة الروحية اليومية بعض المعارض، لعرض وبيع الكتب الدينية والإصدارات الأخرى مثل صور القديس والشهداء وخاصة القديس صاحب المولد (صورة رقم ٤) بالإضافة إلى منتجات الكنائس من مواد غذائية ومشغولات يدوية وغيرها[xxvi].

---

[i] مؤسسة الاهرام ،تقرير الحالة الدينية في مصر ،ص٩.

[ii] علي فهمي ، دين الحرافيش في مصر المحروسة ،ص٧٨.

[iii] علي فهمي ، المرجع السابق ،ص٨٠.

[iv] مراد كامل ، حضارة مصر في العصر القبطي ،ص١٢.

[v] فاروق احمد مصطفى ، الموالد دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر ،ص٥٦.

[vi] محمد عباس ابراهيم ، صناعة الوالي ، ص٥.

[vii] محرم كمال ، اثار مصر الفراعنة في حياتنا اليوم ، ص١٨.

[viii] علي فهمي مبارك ، الخطط التوفيقية لمصر ج١، ص٨٩.

[ix] فاروق احمد مصطفى ، الموالد دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر، ص٨٩.

[x] محمد الجواهري ،علم الفلكلور دراسة في المعتقدات الشعبية ، ص٨١.

[xi] ايميل ماهر ،يوم الاحد يوم الرب ، ص٢٣.

[xii] محمد الجواهري ، علم الفلكلور دراسة في المعتقدات الشعبية ، ص١٩.

[xiii] ايميل احمد ، يوم الاحد يوم الرب ، ص٣٤.

[xiv] مراد كامل ،حضارة مصر في العصر القبطي ، ص٧٠.

[xv] مؤسسة الاهرام ،تقرير الحالة الدينية في مصر ،ج٢، ص٤٥.

[xvi] علي فهمي ، دين الحرافيش في مصر المحروسة ،ص٣٠.

[xvii] عبد الله مختار السباعي ، تراث النوبة في ليبيا ، ص١٥٣.

[xviii] محرم كمال ، اثار حضارة الفراعنة في حياتنا اليوم ، ص٨١.

[xix] ايميل ماهر ، يوم الاحد يوم الرب ، ص٨٧.

[xx] مؤسسة الاهرام ،تقرير الحالة الدينية في مصر ،ج٢، ص١٢٧.

[xxi] محمد الجواهري ، علم الفلكلور دراسة في المعتقدات الشعبية ، ص١٧.

[xxii] مرد كامل ،حضارة مصر في العصر القبطي ، ص٥٩.

[xxiii] علي فهمي دين الحرافيش في مصر المحروسة ، ص٣٣ .

[xxiv] محمد عباس ابراهيم ، صناعة الوالي ، ص٧٩.

[xxv] ايميل ماهر ،يوم الاحد يوم الرب ، ص١١٧.

[xxvi] علي فهمي ،دين الحرافيش في مصر المحروسة ، ص٢٩.